مدخل إلى الأدب المقارن وتطبيقه على «ألف ليلة وليلة»

مصطفى الكيلاني

المنهاج الشموليّ في كتاب «مدخل إلى الأدب المقَارَن وتطبيقه على ألف ليلة وليلة» للدكتور محمود طرشونة. تَمَّ طبع هذا الكتاب بالمطابع الموحّدة بتونس.

كيف يمكن كتاب معدود الصفحات أنْ يطرح أمّهات القضايا حَوْلَ نصّ ضخم هو «ألف ليلة وليلة» ومنهاج في البحث صعب المراس كثير التشعّبات هو الأدب المُقَارَن؟

إنّ الكتاب منذ القراءة الأولى يكشف لك عن طبيعتِه التأليفيّة ويفتح لك آفاقاً عريضة لبحوث متنوّعة.. اشتمل على قسم نظريّ لخّص فيه الباحث نشأة «الأدب المقارَن ومَراحل تطوّره واتجاهاته الكبرى، فاهتمّت «المدرسة الفرنسيّة» بمفهوم التأثّر والتأثير بين الآداب. واستقرّ رأي الباحثين الفرنسيّين في أنّ المقارنة لا تجوز إذا لم تتضح الصلة بين المؤثّر والمتأثّر «عبر وسائط معلومة». إلاّ أنّ دراسة النصوص في «المدرسة الفرنسية» لم تنل حقّها من الاهتمام للانصراف إلى قنوات التأثير. فولّدت «أزمة الأدب المقارن» في الخمسينات اتّجاهاً ثانياً تمثّل في «المدرسة الأمريكيّة» التي حرصت على تجاوز المدرسة الأولى بعد أن أيقنت غموض مصطلحاتها ومواضيع بحثها ومنهاجها ودعت إلى مشاغل جديدة لا تنحبس في «المصادر وصورة البلدان في أدب الغير والتأثيرات والوسائط». فتقيّدت بالنصوص ودرست «العلاقات الداخلية» وقاومت نزعة التعالي الضمنيّة في الدراسات الأولى بأن وضعت النصوص باعتبارها مادّةً أولى في خطّ واحد قصد المقَارنة بينها. ولم تهمل جمالية النص وعلاقته بالعلوم الإنْسانيّة. ويصرّح صاحب الكتاب بالتطوّر الهامّ الّذي شهدته نظريّة الأدب المقارن وقيمة المنهاج الشمولي في الدراسة المُقارَنيّة بقوله: «والأدب المقارَن في نظرنا يستجيب بِيُسْر لهذه الشموليّة إذْ أنّه لا يكتفي بدراسة الأشياء والنظائر بل يتجاوزها إلى الخصوصيّات ويعلّلها بعوامل مختلفة. وهو المسلك الّذي اتّبعْناه شخصياً في دراسة ظاهرة الكدية في الأدبيْن العربيّ والإسْباني». ويتّضح لنا في آخر محاولة لضبط اتّجاهات الأدب المقارَن أنّ هذا الأدب «فنّ منهجيّ» حسب تعريف A.M-Rousseou وC. Pichois تصحّ المقارنة فيه بين النصّ وميادين التعبير الأخرى أو المجالات المعرفيّة المختلفة. وتمكن المقارنة بين النصوص والأحْدَاث وإنْ تباعدت الأماكن أو الأزمنة على أنْ تكون مختلفة اللّغات متنوّعة المصادر الثقافية مع إمكانية وجود قنوات تفاعل في حين لا يشترط Wellek تعدّد اللّغات والثقافات. ويُعَدّ الأدب المقارن فضاء شاسِعاً يمكنه أنْ يشمل حقولاً تعبيريّة عديدة. فتجمع الدراسة بين الآنيّة والزمانيّة بالبحث في تطوّر الأجناس الأدبيّة والتلاقح بين الحضارات والتأثّر والتأثير في الأدب وغيره من فنون التعبير الأخرى والمقارنَة الأسلوبيّة والبلاغيّة. ويجوز التطرّق إلى المحاور «كالتمرّد والانتقام والحبّ والعداوة». والمقصود بالمحاور الثوابت في الآداب الإنْسَانيّة تُحلّل لإبراز الصلات بين الشعوب والمقارَنة بين الواقع والتوظيف الأسطوريّ لِتجاوز

المسلّمات والمواقف العِرْقيّة.

عناصر الأدب المقارن.

ويهتمّ الباحث بعناصر الأدب المُقارن الكبرى وهي: المنتج أو الباثّ أو المؤثّر، والمتقبّل وهو المتأثّر بأدب الغير، والوسيط الناقل «للمادة الثقافية» يظهر رحّالة هو «طالب علم» يهتمّ بتراث البلد الّذي يزوره ويأخذ عنه المعرفة ثمّ ينقلها إلى بلده فيحصل التلاقح. وقد تطوّر مفهوم الرحلة اليوم نتيجة ظهور وسائل نقل متطوّرة وانعقاد مؤتمرات تجمع النقّاد والمبدعين من بلدان مختلفة. ويضطلع الكتاب أيْضاً بمهمّة الوسيط وهو ناقل مؤثّر إلى حدّ كبير يجعل الصلة بين المؤثّر والمتأثّر وطيدة في هذا القرن بالإضافة إلى انتشار اللّغات اليوم وخاصّة اللّغات ذات التأثير العالميّ نتيجة الاستعمار الاقتصادي والسياسي وتطوّر وسائل الإعلام وانتشار مراكز ثقافية أجنبيّة في سائر بلدان المعمورة. وتُضاف إلى وسائل التأثير المذكورة الجامعات والترجمة وما تطرحه اليوم من قضايا مختلفة. ويحلّل الدارس مدلول التأثير والتأثّر. فمَعْنى الأوّل يمكن أنْ ينحصر في إنْتاج «أديب واحد» أو «قطر واحد». وقد يحصل التأثير في بلدان بعيدة ولا يتمّ في بلدان قريبة. ويكون التأثر مدفوعاً بإعجاب أديب اطّلع على أدب أجنبي، وهو سبب فرديّ مباشر أو قد يُفسّر التأثّر بعامل «فقر الأدب القوميّ» أو «الرغبة في التجديد» أو الرغبة في التخلّص من تأثيرات معهودة «كميل بعض المثقفين العرب إلى الأدب الروسي للتخلّص من هيمنة الأدب الغربيّ». ويفصل الباحث بين التأثّر المباشر وغير المباشر. فتُعدّ «المحاكاة» أو «المعارضة» في الشعر ـ حسب المصطلح النقديّ القديم ـ صِنفاً من التأثّر المباشر الصريح، وقد يُرادُ بالتقليد الهزل «للمناقضة كخروجCervantes في كتابهDon Quichotte عن مألوف رواية الفروسية في عصره. ويمكن التعبير عن التأثّر «بالممازجة»، ويسَمّيها العرب «سرقة» أدبيّة وهي الأخذ عن الغير دون ذكر المرجع. ومن المبدعين من يتصدّى للتأثيرات الأجنبية محافظة على مقوّمات الشخصيّة كموقف العرب من المسرح. ومن أصناف التأثّر أيضاً تلقّي الظاهرة ومحاورتها لِدَحْضِها.

أمّا التأثير فيقتضي أنْ يكون الأدب المؤثّر مُشِعاً ضارباً في تربته الوطنية فسيح الآفاق الإنسانية أو طريف الصورة الإبداعية أو نابعاً من بلد مستعمر.

ـ الأدب المقارن إنساني الماهيّة والتوجّه:

وقد شهد الأدب المقارَن في السنوات الأخيرة تحوّلات كبرى. فما عاد مجالاً يقتصر على دراسة الآداب القوميّة في اتّصالها بالآداب الأجنبية بل تعدّى ذلك إلى البحث في التيّارات العالميّة. وأثار الباحث في هذا السياق قضيّة ترتيب الآداب الإنْسانيّة إلى «مجموعات أدبيّة كبرى». ويبرز لنا الأدب المقارن في آخر القسم الأوّل من الكتاب أَدَباً طموحاً يهدف إلى كتابة «التاريخ الأدبيّ العامّ» بحثاً في «فلسفة الأدب» وتركيزاً علَى العناصر الثابتة في التجربة الأدبيّة الإنْسانيّة، وهكذا فإنّ هذا الأدب إنْسَانيّ الماهية والتوجّه العام يجمع بين أبعاد ثلاثة: القومي والإنْسانيّ والفنّيّ مع إمْكانِ إضافة البعد الذاتي. ولا أحد ينكر القيمة العالمية لبعض الآثار وتحدّيها البيّن لحتميّات الزمان والمكان «كالتوراة والإنجيل والقرآن وبعض الملامح الإغريقية كالإلياذة والأوذيسة والمؤلّفات العربية كألف ليلة وليلة والمسرح الكلاسيكيّ والأدب الرومنسيّ».

ـ «ألف ليلة وليلة»:

وفي القسم الثاني التطبيقيّ يبدأ الدكتور محمود طرشونة في بحثه المُقَارَنِيّ بتحديد طبيعة كتاب «ألف ليلة وليلة» وموقعه في الأدبيْن العربيّ والإنْسانيّ. ويعود بنا إلى ابن النديم في «الفهرست» وأبي حيّان التوحيدي في «الإمتاع والمؤانسة» لِيُبْرِزَ لنا موقف العرب القُدَامى الرافض لهذا الكتاب نتيجة التأثيرات الدينيّة والأخلاقية أو بِسبب ملامحه العفويّة الشعبيّة.

ويسمح الكتاب المدروس نتيجة كثرة تفرّعاته ورحابة فضائه البنيويّ بمقاييس النقد الخارجي والنقد الداخليّ. فيجزم الدارس اعتماداً علىVon Hammer وVon Derline وV. chauvin بأنّ للكتاب منذ نشأته إلى حدّ اكتماله ثلاث مراحل كبرى: المرحلة الهنديّة والمرحلة الفارسيّة والمرحلة العربيّة بقسميْها البغدادي والمصريّ. ويذكر أحمد حسن الزيّات في كتابه «أصول الأدب» حكايات تُساعد على إبراز

هذه المراحل كاشتمال البعض على مدلولات العقيدة الهنديّة وتحوّل الإنسان إلى حيوان والسرد لِغرضٍ حِكميّ واستخدام الخوارق الدالّة على الحضور الفارسيّ. ولعلّ الفرس تصرّفوا عند ترجمة الحكايات الأولى من الهنديّة إلى لغتهم وأضافوا إليها مجموعة من حكاياتهم ثمّ تُرْجِمت في غضون القرن الثالث للهجرة قريباً من زمن ترجمة «كليلة ودمنة» إلى العربيّة أيضاً. . أمّا المرحلة البغدادية فإنّها تظهر بالخصوص في الحكايات الغراميّة. وفي المرحلة المصريّة توجد حكايات من العهد الفاطميّ تشتمل على مذهب الباطنيّة وإشارات هامّة إلى ذلك العصر كالطلاسم والسحر والجنّ. وتنقل حكايات الحروب والبطولة بالعهد الأيّوبي. . أمّا المرحلة المملوكيّة فإنّها تظهر بوضوح في حكايات الشطّار خاصّة.

وهكذا فإنّ الكتاب هو ثمرة حضارات وثقافات عريقة تفاعلت إيجاباً. . وتقتضي القراءة الداخليّة التوقّف عند أهمّ عناصر التركيب النصّيّ. فتبدو الحكاية الإطاريّة النواة الأولى في الكتاب المدروس حافظت على بعض عناصر تركيبها الأوّل ولم تفقد ملامحها الهنديّة تماماً، غير أنّها تطوّرت بحكم طبيعة بنائها الدائري المفتوح واستعدادها العضويّ لتقبّل أيّ إضافة تنسجم والنَسَقَ العامّ. وتحتلّ الحكايات الفرعيّة المتراكمة وظيفة كبرى إذْ تقْدرُ شهرزاد في منطق التوالد الحكائيّ على إقناع شهريار بالتخلّي عن فكرة القتل، فَتَنْتصر المرأة مثال الحكمة على الرجل الهوى وتحافظ الحكاية الإطاريّة بذلك على وحدتِها النسبيّة وتثبت قدرتها على الانفتاح بالتضمين.

واهتمّ الدارس بتعدّد الأجناس الأدبيّة وتمازجها في الكتاب انطلاقاً من خاصيّات النقد العربيّ القديم حرصاً على إبقاء مصطلحاته وتطعيمهما بمصطلحات جديدة. فاستخرج تسعة أجناس أدبيّة وهي: «السيرة والحكاية والأسطورة والقصص الحيوانيّ والحكاية الخرافية والحكاية الواقعيّة والحكاية التعليميّة والنادرة والقصص الغراميّ. واستدلّ بأمثلة نصّيّة لإثبات هذا التقسيم العلميّ. ومن القضايا الأخرى الّتي أثارها الباحث وحدة الكتاب و «مظاهر التفكّك» معاً وزمان الحكايات والمكان حيث تتنزّل أنظمة السرد. وبرهن الباحث على الأبعاد الكبرى في النصّ المُجْمل وهي: البعد التاريخيّ والبعد الاجتماعيّ والبعد النفسيّ والبعد الأخلاقي التعليميّ، وسعى إلى إبانة هذه الأبعاد ومناقشة بعض الآراء المجحفة الّتي ذهب إليها خليل أحمد خليل في تركيزه على طبقة التجار واعتبار القيم السائدة في الكتاب تعود إلى إيديولوجية هذه الطبقة، وردّ ذلك في مُؤَلّفِهِ «مضمون الأسطورة في الفكر العربيّ». وختم الباحث كتابه بالإشارة إلى تأثيرات «ألف ليلة وليلة» في عدد كبير من المبدعين العرب والغربيّين، ثمّ ضبط في الأخير حدود بحثه بقوله: «ولا شكّ أنّ ما قدّمناه ليس إلاّ أفقاً من آفاق البحث في هذا الصرح الشامخ وعلامة تُضِيء طريق دراسات ميدانيّة تقابل بين النصوص وتبرز أَوْجُهَ التشابه وأوجه الاختلاف بين النصّ الأمّ والنصوص المتفرّعة عنه» ثمّ أَرْفَقَ دراستَهُ بقائمة مراجع تتّصل بالجزءين الأوّل والثاني رَتّبَهَا بِعَناوين فرعيّة توازي محاور الكتاب الكبرى.

ـ حدود وآفاق:

لئن اتّسم الكتاب بطابع تجميعيّ في وجهته العامّة يظهر ذلك بالخصوص في التبويب المحكم والتلخيص الشامل والسعي إلى الإلمام بشتى المراجع لإفادة القارىء المتعلّم فقد هدف أيضاً ـ وكما أسلفت ـ إلى طرح أمّهات القضايا في مجالين فسيحين لا يعرفان الحدّ. والأقرب إلى الاعتقاد أنّ الدكتور محمود طرشونة يريد بهذا العمل فتح آفاق عريضة لدراسات نظريّة عامّة ونصّيّة حضارية مختلفة كتعميق البحث حول نقاط الفصل في الأدب المقارن بين «المدرسة الفرنسية» و «المدرسة الأمريكية» وإثراء معالجة القضايا المطروحة في المدرسة الثانية والاهتمام بفلسفة الأدب بتحديد الماهية ودراسة الثوابت والاتّجاهات الأدبيّة الكبرى العالميّة، وتلك حقول مخصبة تدعو الباحثين إلى إنجاز دراسات متعددة المواضيع والتوجهات. . ويكتمن الجزء المخصّص «لألف ليلة وليلة» تساؤلات باحثة تدفع الدارسين التونسيّين والعرب عامّة إلى بحوث معمّقة كثيرة كالنظر في أصول الكتاب ومراحل تطوّره بين النشأة إلى الاكتمال ودراسة مادّته اللغويّة قَصْدَ استكشاف تركيبه اللساني والأسلوبي وعلاقة الفصحى باللهجات المؤثّرة فيه وتعدّد أجناسه الأدبيّة وعلاقة الحكاية الإطاريّة بالحكايات الفرعيّة، وأبعاده النفسيّة والحضارية والاجتماعية والتاريخية، وتحليل المحاور الكبرى كالجنس

والمرأة والحرب والموت والمجتمع والتاريخ والحضارة.

ولم تكن غاية الباحث بالتجميع إدْهاش القارىء بغزارة المراجع والمعلومات بل إنّ في قراءاته المتنوّعة شواهد حيّة على أنّ النصّ صعب التركيب متعدّد العناصر يُحلّل لغاية محدّدة هي الوصول إلى مَعَانٍ. ويمكن أنْ يتّضح لقارىء هذا الكتاب وغيره من دراسات المؤلّف أنّ الموقف الشموليّ الغائيّ لم يتولّد في المدّة الأخيرة طفرة مفاجئة ولكنّه عطاء تجربة طويلة المدى تعود بنا إلى الستّينات منذ أن بدأ الباحث يتحسّس طريقه عبر الصحافة الأدبيّة نحو عالم فسيح الأرجاء. وممّا ساعده على التوغّل في التجريب الباحث تفكيره الحواريّ الجامع بين الذات والغير وجمعه في حيّز الاهتمام بين الأدبيْن القديم والمعاصر والانفتاح على الآداب الأجنبيّة والتفكير الحادّ في قضايا الأدب الجوهريّة والربط المُحْكَم بين القراءة النصّيّة والمشغل الحضاريّ. فبديهيّ أنْ يجد هذا الباحث في «ألف ليلة وليلة» توحّد الثقافة الإنْسانيّة دون نفي الملامح العربيّة الإسلامية، ويرى في الأدب المقارن أفضل سبيل إلى قراءة نصّيّة ونتاجيّة حضاريّة. وليس لنا بعد هذا المثال الزاخر بمعاني الشمول الإنْسانيّ إلاّ أنْ نستفيد بمفاهيم الأدب المقارن وتقنياته لرَبْطِ الأدب العربيّ بالآداب الأخرى تطلّعاً إلى أدب عالميّ الآفاق عربيّ الملامح والجذور.

تونس